تفتح ملف.. "العاصمة الأسوأ"

بغداد إلى أين؟

((الحلقة الحادية عشر))

لو افترضنا مثلاً ... أن عقلك غادر بغداد لتسع سنوات ،وجسدك ظل في مكانه ...غيبوبة طويلة كما نسمع عنها،قد تحدث لبعض الأشخاص في حالات مرضية معينة ...ابتدأت الغيبوبة بعد أيام من دخول القوات الأميركية والجنسيات الأخرى المصاحبة لها العاصمة وإسقاطها تمثال صدام الشهير في ساحة الفردوس... وكانت اليقظة في السابع عشر من كانون الأول في هذا العام مع خروج آخر جندي أميركي من الأراضي العراقية إلى الكويت...

واجهات بغداد.. عمران مشوه!

عمارات مهجورة تحت يافطة "مطلوبة عشائرياً"

"خرق" وآثار الرصاص على شرفات مباني العاصمة

□ بغداد/ وائل نعمة
□ عدسة/ أدهم يوسف

خلال هذه السنوات مرت البلاد بتغيرات سياسية واقتصادية كبيرة،رؤساء ووزراء وحكومات مختلفة ،وموازنات انفجارية استمدت تسميتها من الواقع المتفجر أمنياً وسياسياً... خرج الرجل من بعد غيبوبته - كما افترضنا - في أحد الصباحات الباردة التي تأتي لسعاتها من خارج الحدود - كما كل شيء في العراق- سيارة "الكيا" نفسها لم تتغير...دخان ابيض ما زال ينبعث من كومة نفايات أحرقت من ليلة أمس بالقرب من الجدران الخرسانية المحيطة بسوق بغداد الجديدة ...القاذورات تتبعثر بفوضى عارمة في وسط مياه المجاري ،تغطس فيها أرجل الحمير التي تجر العربات الخشبية، مربوطة بعمود كهرباء صدئ تقطعت أسلاكه ،والصبية – بائعو الأكياس - يتدافعون في ما بينهم ،مازحين بقطع الطماطة التالفة...رجل المرور يسحب رخصة احد سائقي سيارات الأجرة الصفراء، والآخر يترجاه أن يرجعها "أنا صاحب عائلة" ،وبجواره شابان يمسك أحدهما برقبة الآخر، يتشاجران بسبب تجاوز طابور "الكيات" على "الكوسترات" ،ويحاول الناس من حولهم فك الاشتباك...توجد خلفهم بنايات سكنية مرصعة باللون الأسود،الدخان المنبعث من المولدات الجاثمة فوق صدر الشرفات المطلة على أسواق الخضار واللحوم ترمي بسوادها على الجدران،وساكنو تلك الشقق تفننوا في وضع كل أنواع وألوان "الخرق" لصنع سد يمنع دخول عيون الراصدين لما يدور خلف تلك الشقق!

عندما بدأ البغداديون إعادة البناء

لم يكن هناك حكم مركزي للذوق... بدأت تظهر الألوان المختلفة بشكل عفوي غير منظم ، وكانت بنايات حكومية وأهلية تمتزج فيها الألوان الوردية والبرتقالية من دون النظر إلى الشكل النهائي الذي ستخرج به...رسمت على مقرات الشرطة ألوان زرقاء وبيضاء وبالقرب منها بلاطات خرسانية رمادية كتب عليها عبارات "لا دخل لها بعمل الشرطة" و"لفات" السلك الشائك تتعلق بها أنواع من الأكياس المتطايرة ..يقول محمد سلام ،صاحب معرض لوحات في منطقة الكرادة :" مسؤولون حكوميون يشترون لوحات غير متناسقة ليضعونها في داخل وخارج بنايات حكومية تصل قيمة الواحدة إلى المئة دولار".

وعامل في إنارة وتزيينات أمانة بغداد يشير إلى " أن مصابيح الفلورسنت متعددة الألوان التي تغطي جسور العاصمة تخلق جواً مشابهاً لجزر الهاواي ...وجدران نقاط التفتيش الأمنية رسمت باللون الوردي الساخن لتبعث الأمل"! المصيبة هي أن أمانة بغداد، ومن اجل تزيين المدينة وتوحيد أبنيتها بلون واحد،وقد اختاروا اللون التبني لأبنيتها والأخضر لنوافذها وطبق الأمر - للأسف - في مناطق قديمة وتراثية يكمن جمالها في روعة عمرانها وسحر البناء البغدادي القديم، لذا صبغت الشناشيل باللون الأخضر، فأصبحت الواجهات مشوهة تثير الشفقة ، واقل ما يقال عن شكلها إنه صومالي الشكل!

العاصمة الكبيرة ودبي

بغداد قد نجت من الغزو والاحتلال والحرب الطائفية والانتحاريين- قولوا كما شئتم - لكنها الآن تمر بمرحلة جديدة اسمها فقدان الذوق... الفنانون العراقيون والمتخصصون في العمارة يرمون كرة اختفاء الذوق في ساحة الفساد وعدم الكفاءة الحكومية،يقول حيدر راضي ،مهندس معماري ،"العراقيون يحاولون إبعاد شبح ماضيهم وحياتهم القاتمة بألوان صارخة ولكنهم يخشون الانتقاد ...إنهم غير معتادين على وجود حرية في اختيار أي لون تشاء".

أحد الكتاب الفرنسيين (Caecilia Pieri) في مؤلف له عن فنون بغداد ما بين عام ١٩٢٠-١٩٥٠، يقول "هذا يحدث لأن العراقيين يريدون التخلص من الماضي... إنهم يرون الألوان كوسيلة للتعبير عن شيء جديد، أن كنت صاحب المبنى ،افعل ما تريد به... ولا توجد لوائح حكومية كما هو الحال في باريس أو روما... إنها فوضى الذوق".

على زاوية واحدة ... فإن هناك من يرى بصيص أمل في أن تتحول بغداد إلى مثل دبي الغنية بالنفط ،ويأمل كثير من العراقيين في أن تضاهيها، وأنا أتمنى ذلك. الآن أتذكر بألم ما قاله الشيخ زايد في بداية تأسيس إمارته وهو يقول"سأجعل من دبي تشابه البصرة في جمالها،انه تمنى البصرة ولم يتمن بغداد لأن بغداد سحر لا يمكن الوصول إليه حينها، ... في أماكن أخرى ، ما زالت البنايات تبدو صامتة...في الباب الشرقي حيث أزيلت مؤخرا الاسيجة الكونكريتية التي كانت تحيط المنطقة منذ سنوات..."ليتها لم ترفع "،يقول احد المارة أمام فندق قديم في ساحة الأمة ،لم يبق منه غير عبارة - توجد تدفئة وتبريد - : " كان السياج بمثابة الستر على خرائب وسط العاصمة ...إنها فضحت البنايات المهدمة "،المنظر في ذلك المكان بشع لغاية الاشمئزاز،شقق أو غرف سكنية يعيش فيها عمال تدلت منها ملابس بألوان مختلفة ،وتحولت البناية الى حطام يكاد لا يصمد أمام ريح أو هزة أرضية غير محسوسة على مقياس رختير! والحال يسري على أشهر شوارع بغداد "السعدون" ، فمعظم واجهات المباني قديمة وخربة وصامتة كصمت القبور ... بناية تقع فوق مطعم راق،بذل جهد كبير لإعداد يافطة باسم المكان ،ولكن يعلوها حطام وزجاج مكسر وبقايا أثاث وشقق محروقة ...وكنيسة الأرمن في ساحة الطيران تواجهها بنايات سقطت من حسابات الزمن،من دون ألوان وشرف آيلة للسقوط ...والأمر كذلك قبالة وزارة الصناعة والمعادن في شارع النضال ،فمعظم الشقق السكنية تحولت واجهاتها إلى "سكراب" سيارات ،و(تفصيخ) مكائن ...أنواع وألوان أجزاء السيارات وضعت في واجهة وسطح البنايات. يقول احد العاملين هناك " إنها شقق متروكة ولا تسكنها عوائل ...نستخدمها لوضع السكراب". محمد صاحب محل لبيع أجزاء السيارات الصفراء غير راض على مظهر البنايات أو المحال الصناعية التي تداخلت في وسط المناطق السكنية، وحولتها الى ارض سوداء بفعل زيت السيارات ،لكنه يستدرك: "الأمانة هي المسؤولة ...عليها أن تجد حلولاً".

بينما شاغلو العمارات السكنية بالقرب من ساحتي الأندلس وعقبة بن نافع ،لا يدركون بأن واجهة البناية تملؤها الرطوبة ومياه الشقق تنزل كالشلال من أنابيب تصريف المياه المطلة على الشارع وتغسل السيارات والمارة على حد سواء ،حيث تقول أم زياد التي تسكن في الطابق الثالث " استأجرنا المكان منذ ست سنوات ...صاحب العقار لا يهتم لشكل البناية ،وانه يبعث وكيله لأخذ ٤٠٠ ألف في كل شهر من كل شقة".

الحواسم وشدّة القانون

جانب آخر من المشكلة ...البنايات التي كانت تعود إلى جهات حكومية ،احتلتها عوائل تدعي بأنها لا تملك مأوى ...البناية السكنية أمام مبنى المسرح الوطني ،كانت إحدى الوحدات العسكرية،وقد تحولت بعد ٢٠٠٣ الى سكن عوائل - كما كتب على بوابة البناية - المنطقة تحولت إلى فوضى ومزابل وبسطيات عشوائية ،السكان لم يكتفوا بـ"حوسمة" المبنى بل نزلوا إلى الرصيف ليشغلونه ويملؤه بالمياه الآسنة وبسطيات بيع الخضراوات ،بينما البناية العسكرية السابقة ستسقط عاجلا أم آجلا بسبب الرطوبة.

لاحظ الاعلانات الضوئية!

مولدات كهربائية تصبغ العمارات السكنية باللون الأسود

ناطحات السحاب في بغداد

ألوان صارخة لنسيان الماضي.. وعشوائية في التصاميم

سابق توجيهاً بإعادة تأهيل وتطوير واجهات المباني في خمسة شوارع رئيسة في بغداد على نفقة أصحابها..الشوارع المدرجة في الخطة هي: السعدون ، شارع الجمهورية ، أبو نواس ، الكرادة داخل ،والخارج .

"أمانة بغداد وضعت خطة لهذا التطور من خلال الاعتماد على لجنة الذوق العام ، التي ستكون مسؤولة عن تطوير واجهات المباني" ، ويضيف حكيم عبد الزهرة مدير عام دائرة العلاقات الإعلامية في أمانة بغداد" تم تقسيم لجنة أمانة بغداد للذوق العام إلى خمس فرق ، كل منها مسؤولة عن متابعة وتطوير احد الشوارع.

كما طلبت أمانة بغداد من أصحاب المتاجر في تلك الشوارع إعادة تأهيل وترميم وطلاء واجهات المباني لتحسين مظهرهم. وأكد عبد الزهرة " إذا لم يستطع صاحب المكان أن يدفع نفقات الترميم، فالأمانة تتكفل بالعمل وعليه أن يدفع بالأقساط". وقد حددت لجنة الذوق العام الشروط والضوابط ، التي يجب أن يمتثل أصحاب المباني لها بخصوص مظهر ولون واجهات المبنى لضمان قدر من الانسجام بين التصاميم للمباني.

التطوير فكرة لا يمكن رفضها

العديد من أصحاب المحال وغيرهم من المواطنين رحبوا بالتطوير ، معتقدين أنها ستعود بالفائدة على الجميع وإعطاء المدينة لمسة من الجمال. يقول احمد سامي ، الذي يملك مبنى في شارع السعدون : انه يؤيد قرار أمانة بغداد من البداية،"أمانة بغداد لا تبذل الكثير من الجهد لتطوير العاصمة ولكن علينا مساعدتها بقدر ما نستطيع".

بينما رحيم الجبوري الذي يملك مبنى في شارع الكرادة خارج ،فيقول: انه غير قادر على إعادة تأهيل المبنى إلا انه يقبل العرض من لجنة الذوق العام للقيام بهذا العمل والسماح له بدفع التكلفة على شكل أقساط.

فيما أشار عواد عبد الله ٥٢ عاما ، إلى أن بعض المباني في العاصمة سوف تحتاج إلى أكثر من التصليحات السطحية فقط..."الإرهابيون كان لهم دور كبير في الأضرار التي وقعت على عدد منها...على الأمانة أن تأخذ بنظر الاعتبار بأن بعض المباني لا بد من هدمها وأعيد بناؤها بعد ذلك".

الإرهاب والجمال

"تجميل الشوارع والمباني خطوة مهمة تجعلنا نشعر بأننا هزمنا الإرهاب"، وتتابع الطالبة في كلية الفنون الجميلة هنادي محمد: "هناك تناقض كبير بين الجمال والإرهاب ، والمزيد من الجمال يعني هزم المزيد من الإرهاب".

فيما لا تزال الكثير من البنايات المدمرة أثناء الحرب الأخيرة،وفي فترات العنف التي سادت البلاد خلال السنوات السابقة شاخصة أمام الجميع...المطعم التركي - المثير للجدل - لم يتغير الحال به منذ أن تم قصفه بصاروخ أميركي في عام ٢٠٠٣،واختلفت الروايات بين من يقول بأن المكان ملوث بإشعاع نووي ،وبين من يقول إن الأمانة والمحافظة مهملتان ولا تقومان بعملهما الصحيح ،وفريق آخر يقول " اضعف الإيمان ..هو أن يقوما بتغطية البناية بأي شيء..لأنها تذكرنا بالحرب". فيما بنايات أخرى ما زالت تبعث منها رائحة الحرب والرصاص المزروعة آثاره على الجدران ...الثقوب التي خلفتها المواجهات بين الإرهابيين والقوات الحكومية لم تعالج في بعض البنايات، ولم يزل أثرها موجودا ،وبعض المباني بقيت محروقة ،والأخرى شبه مهدمة ومكتوب عليها "مطلوبة عشائريا"... ولا ننسى أبنية الأسواق المركزية المنهوبة والمهجورة منذ سنوات في أحياء؛ العامل ، والشعب ،والمستنصرية ...فضلا عن مبنى الأمن العامة في منطقة البلديات المحاط بسياج امني كبير، ومن خلفه تسمع أنين التعذيب وضرب السيطان على جلود المعارضين تظهر على الجدران!...في النهاية ستختار أن تعود إلى الغيبوبة!!!